عبّاس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ (ت بعد 230هـ)
حياته وشعره

علاء الدين زكي

مدخل:

يعنى هذا البحث بحياة الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح الثقفي الجزيري، وتحقيق شعره ودراسته، فكان أن طوّفتُ في المصادر والمراجع التي تناولتْ سيرة حياته وشعره، فجمعتُ أخباره، ولملمتُ أشعاره، ثم اجتهدتُ في دراسة ذلك، ضمن مبحثين اثنين: تناولتُ في المبحث الأول منهما حياة عباس بن ناصح: اسمه ونسبه، وعلومه ومناقبه، ورحلته في طلب العلم، وروايته للشعر.

وقمت في المبحث الثاني بجمع ما تناثر من شعره في بطون كتب التراث الأدبي، وحققتها تحقيقاً علمياً، اجتهدت فيه الوصول إلى الغاية، ومن ثم قمت بدراسة أشعاره موضوعياً وفنياً، وختمت البحث بمناقشة قضية تأثر الأندلسيين بالمشارقة مبدياً الرأي الراجح عندي فيها، ومتخذاً من الشاعر عباس بن ناصح أنموذجاً على ذلك.

وقد واجهتني جملة من المصاعب، أهمها: أنني لم أجد أية دراسة عن الشاعر عباس بن ناصح، تصلح مدخلاً أو مرجعاً أحاكم إليه دراستي هذه، وبذلك تكون دراستي بكراً عذراء في موضوعها، وصعوبة أخرى تمثلت في تكرار بعض المصادر أخبار عباس بن ناصح دون أية إضافة تذكر، فكان جمع المادة أحياناً لا يفيد سوى تأكيد خبر معلوم مسبق لديّ، وصعوبة أخرى أخيرة وخطيرة، وهي ضياع أغلب شعر عباس بن ناصح، وبذلك تبقى الأحكام التي يصدرها هذا البحث أمينة على الأشعار الواردة فيه، ورهينة بالأشعار التي يمكن أن يكشف عنها علم التحقيق في المستقبل.

المبحث الأول: حياة عبّاس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ

أولاً: اسمه ونسبه (1)

يكنى أبا العلاء أو أبا المعلى(2)، وينتسب في ثقيف، وأصله في البربر، وهو عباس بن ناصح بن يلتيت بن قطري الأودي ثم المصمودي، كان أبوه قد رحل به وهو صبي فنشأ بمصر، وتصرف بالحجاز طالبا للغة، ثم رحل به أبوه إلى العراق وقد تعالت سنّه فلقي الأصمعي وغيره من علماء البصريين، ثم قدم الأندلس، ومسكنه الجزيرة الخضراء(3).

كان ناصح والد عباس عبدا لمزاحمة بنت مزاحم بن محمد الثقفي الجزيري، اسمه يذرف، اشترته مزاحمة في سنة خمس وستين ومئة، وهو من أهل أوربة(4)، أخذه السّبّاء، فاشترته مولاته هذه وسمّته ناصحاً، ثم أعتقته وزوّجته وحبست عليه ضيعتها بقرية لنقيلة، فجاء بعباس أحوذياً نسيج وحده.

وكان عباس في وقته يهاجي إبراهيم بن قطَن المهري الجزيري(5) ويعارضه، فيناقضه إبراهيم ذلك ويرد عليه في أشعاره ويورّي به في أبوته(6).

ولعباس بن ناصح ولد كثير ذو شرف ونباهة وعلم، ينتفون من الرقّ، ويزعمون أنّ يذرف جدّهم من أوربة شلاش، من أقوام يعرفون ببني عبد الرحمن(7).

وقد مدح عباس بن ناصح الأمير الحكم بن هشام فأعطاه عطاء بعد عطاء، ثم ولّاه قضاء شذونة والجزيرة، فبقي عليهما إلى أن مات قاضياً، ثم ولّي ابنه عبد الوهاب

محاضر في جامعة الزيتونة الأردنية.

عليهما إلى أن توفي، ثم ولّي محمد بن عبد الوهاب عليهما إلى أن توفي، فكانوا ثلاثة قضاة شعراء علماء أدباء ذوو شرف في نسق واحد(8).

توفي عباس بن ناصح في آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن عبد الحكم بن هشام، بعد الثلاثين والمئتين للهجرة الشريفة(9).

وفي رثائه يقول بكر بن عيسى الكناني –أحد شعراء الأندلس–(10):

نبّئتُ أنّ أبا العَلاء أصابَهُ ما لم يَفتْهُ الأعصَمُ المتوقّلُ
من بعد ما هطلتْ غيوم سمائهِ علماً تُناخُ به المطيُّ وتُرْحَلُ

ثانياً: علومه ومناقبه

أورد ابن حيان القرطبي طائفة من علوم عباس بن ناصح ومناقبه – التي أهّلته إلى أن يتصل بالأمير الحكم بن هشام، ومن ثم توليته منصب القضاء – فقال نقلاً عن عيسى بن أحمد:»كان عصر الأمير الحكم قبل وثوب أهل حضرته به، من أوثق أعصار الخلفاء المروانيين وأنبهها: ففيه ظهر العلماء والشعراء والبلغاء والأدباء، مثل عباس بن ناصح الثقفي الشاعر الجزيري فحل شعراء الأندلس، المتفنن في جميع العلوم، البارع في حفظ اللغة وضبط اللسان العربي ، الحاذق في البصر بدقائق الحساب والفلسفة والهندسة، والنفاذ في مطالعة الكواكب، والرسوخ في علم الآثار العلوية. له في جميع ذلك آثار معلومة، وأخبار سائرة.

وكانت له بالأمير الحكم خاصة قريبة، ومنزلة رفيعة. ولحقته على ذلك سعاية أحفظته عليه، تثبت فيها الأمير الحكم فانتشله. فله فيه أشعار كثيرة محكمة في المديح والاعتذار والشكر على التثبت، والاعتداد بجسام الأيادي، هي في أيدي الناس باقية.

وكان عباس في ذاته عاقلاً، جميل المذهب، حسن النية. وكان يهدي النصائح إلى الأمير الحكم على سبيل الديانة، ويذكره بالثغور، ويحضه على الجهاد عند الفترة «(11).

نخلص من هذا إلى ان عباس بن ناصح كان عالماً وشاعراً وبليغاً وأديباً، وواسع العلم والمعرفة «المتفنن في جميع العلوم»، وحافظاً للغة نحوها وصرفها «البارع في اللغة وضبط اللسان العربي»، ومن علومه التي حذق بها : الحساب والفلسفة والهندسة والفلك، ثم هو صاحب تآليف أو تجارب شاهدة على هذه العلوم، إذ له فيها « آثار معلومة ، وأخبار سائرة »، كما كان له حظ من فقه ورواية لم ينقل عنه لغلبة الشعر عليه(12)، ولعل هذا العلم الواسع هو الذي أوغر صدر أقرانه عليه، فحسدوه، وكادوا له عند الحكم بن هشام، فلم يفلحوا بسعيهم لحكمة الحكم، ولحسن سيرة عباس بن ناصح، وقد صدق الشاعر عبد الوهاب المالكي إذ يقول:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكلّ أعداء له وخصومُ
كضرائر الحسناء قلْن لوجهها حسدا وبغيا إنّه لذميمُ

أما مناقب عباس بن ناصح الحسنة، وفضائله النفسية، فهو عف، وعاقل، وجميل المذهب، وحسن النية، يقدم نصائحه للأمير ابتغاء وجه الله، لا تكسّباً للمال، ولا طلباً للجاه والحظوة، ولذلك نجده يذكّر الحكم بحفظ الثغور، ويحثه على الجهاد، مستثمراً في سبيل ذلك فنّه الشعريّ، وهذا ما سنتبينه لاحقاً، عند الحديث عن شعره.

وأمر آخر نستخلصه من هذا النص، وهو «أن أمراء بني أمية أظهروا رعاية بالغة للشعراء، وكانوا يغدقون عليهم الجوائز والأعطيات ويجعلونهم وزراء وسفراء وندماء، ويقيمون لهم مجالس الشعر ويحضرون مجالسهم ويشاركونهم قرض الشعر، وقد اتخذ كل منهم حاشية من الشعراء يخلدون

إنجازاته، ويصاحبونه في حله وترحاله وغزواته»(13)، وهذا من أهم أسباب ازدهار الحياة الأدبية في عصر الإمارة .

ولابد من الإشارة هنا إلى حصر ظهور العلماء والشعراء والبلغاء والأدباء، في المدّة التي سبقت قيام ثورة أهل الربض على الحكم بن هشام في سنتي 189هـ و202هـ ، مما يدل على أن هذه الثورة قد أثرت بصورة سلبية على الحركة الأدبية في الأندلس»(14).

ثالثاً: رحلته في طلب العلم

سبق أن تحدثت عن اصطحاب والد عباس ابنه عباساً – وهو إذ ذاك صبي – إلى مصر فالحجاز ثم العراق، حيث التقى عباس بالعلماء والأدباء واللغويين في تلك الأصقاع(15)، وكان لذلك أثره في عقل عباس، وفي مسيرة حياته العلمية والأدبية فيما بعد.

وفي هذا الصّدد، ينقل لنا الزبيدي رواية عن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، يحدث فيه عن والده، وعشقه للشعر، وتتبّعه لأخبار الشعراء، فيقول: «كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن نجم في الشعر بعد ابن هَرْمَة حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور الحسن بن هانئ وارتحاله من البصرة إلى بغداذ، والمحل الذي حله من الأمين وبني برمك، فأتاه من شعره بقصيدتين، إحداهما قوله:

جريتُ مع الصِّبا طَلَقَ الجُموحِ (16)

والثانية:

أما ترى الشّمس حلّت الحَمَلا (17)

فقال أبي: هذا أشعر أهل الجن والإنس، والله لا حبسني عنه حابس، فتجهز إلى المشرق. قال: فأخبرني، قال: لما حللت ببغداذ نزلت منزلة المسافرين، ثم كشفت عن منازل الحسن، فأرشدت إليه، فإذا بقصر على بابه حفدة وخدام، فدخلت مع الداخلين، فوجدت الحسن جالساً في مقعد نبيل، وحوله أكثر متأدبي بغداذ، يجري بينهم المثل والتمثل والكلام في المعاني، فسلمت وجلست حيث انتهى بي المجلس، وأنا في هيئة السفر، فلما كاد المجلس ينقضي قال لي: من الرجل؟ قلت: باغي أدب، قال: أهلاً وسهلاً، من أين تكون؟ قلت: من المغرب الأقصى، وانتسبت إلى قرطبة، فقال لي: دار القوم؟ قلت: نعم، قال لي: أتروي من شعر أبي المَخشِيّ شيئاً الذي قاله عندكم؟ قلت له: نعم، فقال: فأنشدني، فأنشدته شعره في العمى، فلما بلغت:

كنتُ أبا للدُّرى إلا الدُّرا ... ما فقأت عينيَّ إلا الدُّنا

(وفي رواية أخرى أنشده:(18))

أنْ قضى الله قضاءً فَمَضى ... خَضَعتْ أمُّ بناتي للعِدى

مَشيُهُ في الأرضِ ضَرْبٌ بالعصا ... وَرَأتْ أعمى ضريراً إنّما

وَهْيَ حرّى بلغتْ منّي المَدى ... فاسْتكانَتْ ثمّ قالتْ قولةً

ما مِنَ الأدواءِ داءٌ كالعمى ... ففؤادي قرحٌ مِن قولها

قال: هذا الذي طلبته الشعراء فأضلته، ثم قال: انشدني لأبي الأجرب، فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكنانيّ، فأنشدته، قال: شاعر البلد اليوم عباس بن ناصح؟ قلت: نعم، قال: فأنشدني له: فأنشدته :

فَأَدْتُ القريضَ وَمَنْ ذا فَأَدْ

قال لي: أنت عباس؟ قلت: نعم، فنهض إليّ فتلقيته، فاعتنقني إلى نفسه، وانحرف لي عن مجلسه، فقال له من حضر المجلس: من أين عرفته أصلحك الله في قسيم بيت؟ قال: إني تأمّلته عند إنشاده لغيره، فرأيته لا يبالي ما حدث في الشعر من استحسان أو استقباح، فلمّا أنشدني لنفسه استبنت عليه وجمة، فقلت: إنه صاحب الشعر.

قال عباس: ثم أتممت الشعر، فقال: هذا شعر الغرب، ثم نقلني إلى نفسه فكنت في ضيافته عاماً» (19).

وفي بعض روايات هذه الرحلة، أن الحسن بن هانئ – أبا نواس – قضى لعباس بن ناصح بالفضل على نفسه(20)، وفي هذا إشارة إلى مكانة عباس العلمية، ومستوى شاعريته، فليس من السهل أن يشهد شاعر فحل كأبي نواس لأحد بأنه أفضل منه، إلا إن كان ذلك الشاعر يستحق تلك المرتبة بجدارة واستحقاق.

نخلص من هذا النص إلى استنتاجات عديدة، أهمها هنا، وموطن الشاهد فيها، قول عباس بن ناصح بعدما سمع شعر أبي نواس: «هذا أشعر أهل الجن والإنس، والله لا حبسني عنه حابس»، ثم نجده يتجهّز للسفر إلى المشرق ، فيتحمّل المشاق والمتاعب حبّاً في العلم، ثم يقيم عاماً كاملاً في ضيافة أبي نواس ، يتأدّب بأدبه، ويرتشف من ريّا شربه.

وهذه رحلة أخرى يقوم بها عباس بن ناصح، بتوجيه من الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى العراق، وذلك في التماس الكتب القديمة وانتساخها ، فجهز الأمير عبد الرحمن عباساً بالأموال اللازمة: «فأتاه بكتاب الزيج والقانون والسند هند والأركَنْد والموسيقا وسائر كتب الفلسفة والحكمة وكتب الطب وغيرها من كتب الأوائل، فكان عبد الرحمن أول من أدخلها إلى الأندلس، وعرّف أهلها بها، ونظر هو فيها وفي غيرها من الكتب الإسلامية»(21).

لقد كان اختيار الأمير عبد الرحمن عباس بن ناصح لأداء هذه المهمة الجليلة مؤشراً على عدّة أمور، أهمها: الثقة العلمية بعباس بن ناصح، ومقدرته على انتقاء الكتب النافعة، العمدة في موضوعها، اللازمة لأهل الأندلس، باعتبار غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وتعدد معارفه. بالإضافة إلى قبوله الترحال، المرة تلو المرة، فيتحمل مشاق السفر من مغرب العالم الإسلامي إلى مشرقه، أملاً في أن تشرق على بلاده شمس ذات نور جديد.

لقد كان لهذه الرحلات العلمية دور بارز في ازدهار الحركة العلمية في عصر الإمارة، إذ أدّى «نشاط حركة رحلة العلماء من الأندلس إلى المشرق وبالعكس، مع ما يجلبه هؤلاء العلماء إلى الأندلس من مؤلفات المشارقة في مختلف العلوم، من مؤلفات أدبية ولغوية ودينية ودواوين شعراء وغيرها؛ أدّى ذلك إلى عناية الأندلسيين بإنشاء المكتبات الخاصة والعامة، في منازل العلماء وقصور الأمراء والمساجد، وكذلك أقيمت المدارس وحلقات العلم في المساجد وغيرها»(22).

رابعاً: روايته للشعر

حرص عباس بن ناصح على تتبع أخبار الشعراء، وسعى إلى الاستماع إلى شعرهم، وهذا دأب كل شاعر يريد تنمية مقدرته الشعرية، وصقل ذوقه الفنّيّ، وآية ذلك الخبر الذي رواه عنه ابنه عبد الوهاب – وقد ذكرته في الفقرة السّابقة – وكيف أنه استنشد أحد التجار القادمين من المشرق قصيدتين لأبي نواس، ثم إعجابه بهما، ورحلته إلى أبي نواس، وإقامته في ضيافته عاماً كاملاً، ولنا أن نقدّر مقدار الشعر المشرقيّ الذي استوعبه عباس بن ناصح في هذا العام، ومن ثَمّ أثره في شعره، وشعر إخوانه من الشعراء الأندلسيين، بعد أن نقله إليهم ، وبلّغهم إيّاه.

ولا يتوقف الأمر عند حدّ إعجاب عباس بن ناصح بالشعر المشرقيّ، وروايته له، بل نجده يروي أشعاراً كثيرة لشعراء أندلسيين، أمثال أبي المَخشيّ، وأبي الأجرب، وبكر الكنانيّ، بناء على طلب من أبي نواس نفسه، وفي هذا دليل آخر على شاعرية عباس بن ناصح، وإفادته من تجارب الشعراء من حوله، تبصّراً فيما قدّموا وأبدعوا، والحكمة السّائرة: اختيار المرء نصف عقله، نعرف أثر ذلك عبر القصائد التي اختارها عباس بن ناصح لهؤلاء الشعراء، ثم رواها لأبي نواس، فكان لها حظ في إكرام أبي نواس له ، واستضافته إيّاه.

ومن أمثلة عناية عباس بن ناصح بالشعر، وتتبعه أخبار الشعراء، والموضوعات التي قالوا فيها شعرهم، ما يرويه ابن حيّان عن عثمان بن المثنّى النحويّ المؤدّب قال: « قدم بعد الوقعة – وقعة الرّبض – علينا عباس بن ناصح قرطبة، أيّام الأمير عبد الرّحمن بن الحكم، فاستنشدني شعراً للأمير الحكم بن هشام في الهيج، فأنشدته إيّاه ، فلمّا بلغ (23) إلى قوله:

وَهَلْ زدتُ أنْ وفّيتُهم صاعَ قرضهمْ
فلاقَوا منايا قُدّرتْ ومصارعا

قال عباس: لو أنّ الحكم جوثي لخصومة بينه وبين أهل الرّبض لقام بعذره هذا البيت» (24).

وفي رواية أخرى قال عباس: «إذا كانت الخصومة بينه وبين أهل الرّبض أجبرته، فإنّ هذا البيت ليحاجج عنه يوم القيامة»(25).

نخلص من هذه الرّواية إلى أنّ عباس بن ناصح كان يستنشد أشعاراً للأمراء الشعراء، كما أنه يطلب الشعر وفق موضوع معيّن، أو ضمن الإطار الذي قيل فيه، ثم نلمس أثر علم الفقه في نقده لمضمون أحد الأبيات، وكيف أن الحكم ما قام إلا بالوفاء بالدّين الذي حمّله إيّاه أهل الرّبض، فسدّ دينهم منايا ومصارع.

ونجدر الإشارة إلى دلالة الفعل «جوثي»(26)، وما يحمله من معنى جثوّ كلّ من الخصمين على ركبتيه في مجال المنافرة أو المخاصمة، ومن ثم إدلاء كلّ منهما بحجته، ودلالة ذكر المحاججة «يوم القيامة»، وهي معان مستمدّة من فقه القرآن الكريم، الذي هو جزء من ثقافة عباس بن ناصح الفقهية الدينية، نحو قوله تعالى: «يوم ترى كلّ أمّة جاثية»(27) وقوله تعالى: «ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون»(28).

المبحث الثاني: شعر عبّاس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ

أولاً: شعر عبّاس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ (جمع وتحقيق)

غلب الشعر على عباس بن ناصح، وغطّت شهرته به على فقهه وروايته (29)، وقد جعله الرّازي «فحل شعراء الأندلس»(30)، وكان كذلك «من أهل العلم بالعربية، ومن الشعراء المجوّدين الفصحاء المكثرين، ومذهبه في شعره مذهب العرب الأوَل في أشعارهم ، فيصرف الغريب، ويهوى المتانة»(31). وقد سبقته شهرته إلى المشرق، فعندما التقى بأبي نواس سأله: « شارع البلد اليوم عباس بن ناصح؟... فأنشدني له «(32)، وفي هذا دلالة على السمعة الطيبة التي حظي بها عباس بن ناصح، والمكانة الأدبية التي احتلها شعره بين الأندلسيين خاصّة، وعند المشرقيين عامّة.

وقد اعتنى بجمع شعره وأَخْذه عن بعض ولده عفير بن مسعود، وكان عبد الله الأمير الأمويّ يحفظه ويعرف ما قيل منه بالمشرق، وما قيل بالأندلس، ويحكي من أخبار عباس ما لا يحكيه أهله ولا رواته(33). وهذا النص يكشف عن أمور هامّة، يتمثل أولها في أن بعض شعر عباس ابن ناصح قيل في المشرق، أثناء ترحاله، وهذا له ميزاته الفارقة عن شعره في الأندلس، ويتمثل ثانيها في وجود رواة لشعره، كما أن هناك من اعتنى بجمعه، ويبدو أن جلّ شعر عباس ابن ناصح قد ضاع ، فلم أعثر منه إلا على بضعة وثلاثين بيتاً، أثبتها وفق موضوعها كما يأتي:

قال في الشّعر(34): (الطويل)

بكفّيَ حتّى (آبَ)خاويهِ (مِنْ) بَقْري
بَقَرْتُ بطونَ (الشّعرِ) فاستُفرِغَ الحَشَا

وفي رواية أخرى للبيت نفسه(35):

بكفّيَ حتّى (عادَ) خاويهِ (ذا) بَقْرِ
بَقَرْتُ بطونَ (العلمِ) فاستُفرِغَ الحَشَا

وقال أيضاً (36): (الكامل)

رُجُحٌ مثقّفةُ البناءِ رزانٌ مُتقاربٌ مُتباعدٌ أبياتُهُ

عذْبٍ أُغيثَ ببرده ظمآنٌ وسماعهنّ كطعم ماء باردٍ

فتنظّمتْ يسمو بها البُنيانُ بُنيتْ مباديها علىأعجازها

لِنصالها قدْراً وهنّ متانٌ كقِداحِ مُصطَنعٍ أعدَّ قِذاذها

ذُلُقٌ كأنّ ظُباتِها الشّهبانُ مُتلظّياتٍ ما يُبَلّ رَمِيّها

وقال أيضاً (37): (المتقارب)

فأدْتُ القريضَ وَمَنْ ذا فأدْ

وقال أيضاً (38): (السريع)

للهِ فيها وَهْوَ نَصراني يشهدُ بالإخلاصِ نُوتيُّها

وقال في مدح الأمير الحكم بن هشام (39): (الكامل)

مِنْ أنْ يكونَ بعصرهِ عُسْرُ نَكدَ الزّمانُ فأُمّنتْ أيّامُهُ

تلكَ الكريهةَ جودُهُ الغَمْرُ طَلَعَ الزّمانُ بأزمةٍ فجلا

وقال في حضّ الأمير الحكم على الجهاد ، وحثه على مبادرة العابثين بأمن البلاد (40): (البسيط)

مَنْ كان مِنْ ربقةِ الإسلام مُنْخَلِعا

فأْمُرْ بأمركَ فيهمْ مُوشِكاً وأَخِفْ

مِنْ قبلِ أنْ يَرْحَلوهُ نَحْوَنا جَذَعا

صُلْ بالأفيلِ الّذي رَبَّوا لِفتنتهمْ

وقال في الاستغاثة والاستنجاد بالحكم بن هشام (41): (الطويل)

أُراعي نجوماً ما يُردْنَ تغوُّرا

تَمَلْمَلْتُ في وادي الحجارةِ مُسْهَراً

تسيرُ بِهَمّ سارياً ومُهَجِّرا

إليكَ أبا العاصي نَضَيْتُ مَطيّتي

فإنّكَ أحرى أنْ تُغيثَ وَتَنْصُرا

تداركْ نساءَ العالَمينَ بِنُصْرَةٍ

وقال في الافتخار بشجاعته (42): (البسيط)

عَنْ وِرْدِ ماءٍ قريبٍ غيرِ ممنوعِ

وَقَدْ أُحَلّئُ نفسي وهْيَ صاديةٌ

في فتيةٍ كمصابيحِ الدّجى رُوَعِ

وأهْبِطُ الخَبْتَ لمْ تُؤكلْ أجِمّتُهُ

ماضٍ إذا همّ سامٍ غيرِ مدفوعِ

بكلّ أشْعَثَ قدْ رَثّتْ عِمامتُهُ

ولا يظلّ مُطاراً عندَ تَرْويعِ

يتّخذُ السّيفَ عندَ الهولِ مَفْزَعَهُ

وقال يصف مغيب الشمس (43): (الطويل)

كَعَذْراءَ تبغي في الحِجالِ التّواريا

وَشمسُ النّهارِ قدْ هَوَتْ لمغيبها

وقال في وصف طول الليل والسّهر ومراعاة النّجوم (44): (البسيط)

فلا أرى الليلَ عَنْ مَرْقاته انْصَدَعا

فَبِتُّ أَرْقُبُ صُبْحاً سُدّ مَطلِعُهُ

تَهْوي على السَّمْتِ منها غُوَّراً خُضَّعا

كأنّهُ وَنُجُومُ الليلِ قدْ جَعَلَتْ

أُخرى الرِّعاءِ يُزَجّي سائقاً هُبُعا

راعٍ تَلَبَّثَ قدْ أَوصى بِصِرْمَتِهِ

أَبَرَحْتُماني فإنْ لمْ تَفْعَلا فَدَعا

يا ليلُ أَصْبِحْ ويا صبحُ اسْتَتِرْ فَلَقَدْ

وقال في قطع المفاوز وصفات الإبل والمسافرين (45): (الكامل)

نَوْمَ الفتى ذي المِرّةِ النَّدْبِ وَمَخوفَةٍ تَنْفي مَخافَتُها

بالليلِ مِثْلُ تَنازُعِ الشَّرْبِ لِلْجِنّ في أَجْوازِها لَغَطٌ

أَشْرَفْنَ كالمَنْهوءَةِ الجُرْبِ وترى بها جَوْنَ النّعامِ إذا

وقال في وصف السّراب (46): (البسيط)

عَوْمَ السّفائنِ تُزْجيها نَواتِيُها

تَعُومُ أَحْداجُهُمْ في الآلِ رافعةً

وقال أيضاً (47): (الطويل)

أَمامِيَ وَخَلْفِيَ، راكبُ لُجّةَ البَحْرِ

قَطَعْتُ بها خَرْقاً كأنّي، وآلُهُ

وقال في الزّهد (48): (البسيط)

كَمُدّةِ الدّهرِ والأيّامُ تُفْنيها

ما خيرُ مُدّةِ عيشِ المَرْءِ لو جُعِلَتْ

وابْتَغْ نجاتَكَ بالدّنيا وما فيها

فارغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْضى بِغَيرِ رضاً

وقال أيضاً (49): (الطويل)

إذا المَرْءُ لمْ يَعْدَمْ تُقى الله والكَرَمْ

لَعَمْرُكَ ما البلوى بِعارٍ ولا العَدَمْ

ولا (حازمٍ) إلّا الّذي خُطَّ بالقَلَمْ

تَجافَ عن الدّنيا فَما لِمُعَجِّزٍ

وقال في الغزل (50): (الخفيف)

لا تُمِتْ قَلْبَهُ بِلَوعَةِ صَدّكْ

قُلْ لِعَبْدِ الرَّحيمِ رِفْقاً بِعَبْدِكْ

نَيْكَ والوَرْدِ مِن شقائقِ خَدّكْ

بِذِمامِ الهوى وبالسّحرِ مِنْ عَيْـ

ـكَ ولا تَقْسُ مِثلَ قَسْوَةِ نَهْدِكْ

رِقَّ لي رِقّةً تُشاكِلُ خَصْرَيـ

ثانياً: شعر عبّاس بن ناصح الثّقفيّ الجزيريّ (دراسة موضوعيّة وفنّيّة)

أوّل ما أتوقّف عنده من شعر عباس بن ناصح، قوله واصفاً شاعريّته، وبراعته، وتفنّنه في مذاهب القول(51):

بكفّيَ حتّى (آبَ) خاويه (مِنْ) بَقْري

بَقَرْتُ بطونَ (الشّعرِ) فاستُفرِغَ الحَشا

إذ عمد إلى تجسيد الشعر في قالب حيواني صرف، وفي صورة حسية مادية، مشحونة بدلالات الفعل والحركة (بقرت/استفرغ/بكفي/آب) قدّم دليلاً على مقدرته الشعرية، وبراعته الفنية.

ونحن نلمس التكلّف الشديد في تركيب مكونات هذه الصورة، فالبون شاسع بين رقة الشعر، وجودة السبك، وروعة البيان، مقابل الحشا، وما فيه من نتن يزكم الأنوف! ولعل هذا ما دفع بكر بن عيسى الكنانيّ الأديب، عندما سمع هذا البيت، إلى أن ينقد عباس بن ناصح قائلاً: « أما والله يا أبا العلاء لئن كنت بقرت الحشا، لقد وسّخت يدك بفرثه، وملأتها من دمه، وخبّثت نفسك بنتنه، وخشّمت أنفك بعرفه ! فاستحيا عباس ولم يردّ عليه، وأفحم عن جوابه»(52).

أمّا مفهوم الشعر عند عباس بن ناصح، فهو يقوم على أساس أن الشعر بنيان متماسك، رزين، منظّم في مباديه وأعجازه ، وهذا آية سموّه ورفعته، يقول واصفاً شعره (53):

رُجُحٌ مثقّفةُ البناءِ رِزانُ ... مُتقاربٌ مُتباعدٌ أبياتُهُ
عذْبٍ أُغيثَ ببرده ظمآنُ ... وسماعهنّ كطعم ماء باردٍ
فتنظّمتْ يسمو بها البُنيانُ ... بُنيتْ مباديها علىأعجازها
لِنصالها قدْراً وهنّ متانُ ... كقِداحِ مُصطَنِعٍ أَعدَّ قِذاذها
ذُلُقٌ كأنّ ظُباتِها الشّهبانُ ... مُتلطّياتٍ ما يُبَلّ رَمِيّها

نلحظ من هذه الأبيات، أن عباس بن ناصح يشير إلى مفهوم حقيقة الشعر، وكيف أن الشعر المعتبر يقوم على أساس منظم متين، وليس مجرد مشاعر مبعثرة، لا يربط بينها رابط، إنه يقرر وحدة الفكر والشعور، حتى ينتج ما يمكن أن نسميه فنّاً، ولعل هذه الأنظار تمثل رأياً مبكّراً في نظرية الشعر!

ولا يفوتنا هنا أن نلمع إلى تراسل الحواس كما يبدو في البيت الثاني، إذ جاء لصورة سماع شعره، بصورة ذوقية محضة، تمثلت في حاجة الظمآن إلى الماء البارد العذب، وفي تشبيه أبياته بالقداح (السهام) المتينة ، الذلقة (الماضية النافذة) إشارة إلى اعتداده بشعره، وافتخاره بمخيلته، عندما يطلق هذه الأشعار، فتصيب ما كانت ترنو إليه من معان ومقاصد.

ولعل قصيدته التي ألقاها بين يدي أبي نواس تشي بشيء من هذا الافتخار بمقدرته الفنية والشعرية ، ولم يصل إلينا منها سوى شطر البيت الأول (54):

فأدْتُ القريضَ وَمَنْ ذا فأدْ

والفأد في اللغة: فأده يفأده فأداً: أصاب فؤاده، واللفظ في أصل وضعه يحمل دلالة هامة، إذ نقول: فأد الخبزة أي شواها، وفأد اللحم في النار أي شواه (55)، وكأن عباس بن ناصح يريد أن يقول لنا: لقد أصبت كنه الشعر، وأدركت حقيقته، وأتيت به تاماً متكامل الصورة والبيان، على الهيئة التي سترضي سامعه، وتطربه، وتبلغه ما تهفو إليه نفسه. ولعل قيام أبي نواس، واعتناقه عباس بن ناصح، وانحرافه عن مجلسه، دليل على ما قلت، وللأسف لم يصل إلينا شيء آخر من هذه القصيدة، يصلح للاسترسال في النقد، وتجلية موقف الشاعر الفني .

وهذه رواية أسوقها للحديث عن اعتناء عباس بن ناصح باللغة في شعره ، وإيضاح أثر ثقافته الفقهية في ألفاظه وصوره، إذ أُنكرعلى عباس بن ناصح في مجلس جوديّ النحويّ قوله (56):

للهِ فيها وَهْوَ نَصراني ... يشهدُ بالإخلاصِ نُوتيُّها

فلحّن حين لم يشدد ياء النسب، وكان بالحضرة رجل من أصحاب عباس بن ناصح ، فساءه ذلك ، فقصد إلى عباس – وكان مسكنه الجزيرة – فلمّا طلع على عباس قال له: ما أقدمك أعزك الله في هذا الأوان ! قال: أقدمني لحنك ؛ قال

عباس: وكيف ذلك ؟ فأعلمه بما جرى من القول في البيت، قال: فهلا أنشدتم بيت عمران بن حطان:

وإن لقيتُ معدّيّاً فعدناني يوماً يَمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ

قال : فلما سمع البيت كرّ راجعاً ، فقال له عباس : لو نزلت فأقمت عندنا ! فقال : ما بي إلى ذلك حاجة ، ثم قدم قرطبة، فاجتمع بجوديّ وأصحابه فأعلمهم (57).

تكشف هذه الرواية عن دقة علم عباس بن ناصح في اللغة، وسعة روايته لشعر غيره، ومقدرته على الإتيان بالدليل، أو الشاهد اللغوي، بما يسكت الخصم ويفحمه. أما ألفاظ بيت عباس بن ناصح (58) نحو (يشهد/الإخلاص/لله/نصراني) فإشارة إلى ثقافته الفقهية الدينية، وإن كنت لم أهتد إلى المعنى المقصود من هذا البيت على وجه التمام.

ومن المواضيع التي نجدها في شعر عباس بن ناصح المدح، وقد خص به الأمير الحكم بن هشام، إذ «كانت بالأندلس سنة سبع وتسعين مجاعة شديدة، أحسن فيها الأمير الحكم مواساة أهل الحاجة من الناس، فأفشى الصدقات الواسعة، وفرّق الأموال الكثيرة في الضعفاء والمساكين وعابري السبيل المنقطعين. وكانت مجاعة شديدة عامة لأهل الأندلس، مات فيها منهم خلق، وعبر البحر إلى العدوة منهم عالم كثير. وقد ذكر فضل الأمير الحكم فيها، عباس بن ناصح، فقال في شعره(59):

مِنْ أنْ يكونَ بعصرهِ عُسْرُ نَكِدَ الزّمانُ فأُمّنَتْ أيّامُهُ

تلكَ الكريهةَ جودُهُ الغَمْرُ طَلَعَ الزّمانُ بأزمةٍ فجلا

قد يكون هذان البيتان جزءاً من قصيدة مدح فيها الحكم بن هشام، جزاء ما أسداه إلى الناس من معروف في وقت المجاعة، وقد يكونان مفردين مستقلين، والملحوظ هنا هو مدح الرجل بما فيه، من خصال الخير والكرم، جرياً على مذهب أعذب الشعر أصدقه، فالصدق الموضوعي والفني واضحان جليّان هنا، الأول وصف لواقع الحدث، وما تفضل به الحكم على الناس من صدقات واسعة، والثاني نابع من أصالة الشاعر عباس في تعبيره، بألفاظه وتراكيبه النابعة من ذات نفسه، فالشاعر يعبر عن نكبة أصابت بلده وأهله وخلانه.

ومن مواضيع شعر عباس بن ناصح التحريض على الجهاد، والحث على مبادرة العابثين بأمن البلاد، والخوارج على الحكام، نحو ما حدث أيام الحكم بن هشام، إذ «ظهرت طائفة تدين برأي الخوارج ، وتدعو إليه، وتبرأ من علي بن أبي طالب وهوان الله عليه ومن تلاه من الأئمة، وتسيء ذكرهم، تلفّف إليهم جمع عظيم، وعملوا على قتال الجماعة. فكتب عباس بن ناصح الثقفي الشاعر – وكان رئيس أهل الجزيرة، وعين الأمير الحكم فيهم – إلى الأمير يعلمه بأمرهم، وحيث انتهى تشغيبهم ، يحرضه عليهم، ويحضه على مبادرتهم قبل أن يستفحل أمرهم، وينتشر شرهم، وضمن كتابه شعراً، فقال قصيدة طويلة من غرّ ثصائده:

مَنْ كان مِنْ رِبقةِ الإسلامِ مُنْخَلِعا

فأْمُرْ بأمركَ فيهمْ مُوشِكاً وأَخِفْ

مِنْ قبلِ أنْ يَرْحَلوهُ نَحْوَنا جَذَعا

صُلْ بالأفيلِ الّذي رَبَّوا لِفِتنتهمْ

فلما قرأ الحكم شعره قال: أي والله نفعل وكرامة، ثمّ عبّأ جيشه، وخرج فيهم بنفسه حتىأخذ باب الجزيرة ، وأهلها لا يعلمون ، فحمل السيف على أكثرهم»(60).

ومكمن الراعة في هذين البيتين في إخراج الكناية هذا المخرج اللطيف، فكان خروج الحكم إلى الأعداء، ناجم عن وقوعه تحت تأثير شعر عباس بن ناصح، فالأفيل هو الفصيل أو الصغير من الإبل الحديث العهد بالميلاد، والجذع الجمل الفتي، والمعنى: اقض يا حكم على هذه الفتنة وهي في مبتدئها قبل أن تستشري وتستفحل!

ومن ذلك أيضاً الاستغاثة والاستنجاد بالحكم ، للذود عن حرمات المسلمين، وأعراضهم، وبلادهم، إذ يروى «أن العباس الشاعر توجه إلى الثغر، فلما نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كَلِبَ العدوّ علينا، فأيّمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل العدوّ، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولها:

أُراعي نجوماً ما يُرِدْنَ تغوُّرا
تَمَلْمَلْتُ في وادي الحجارةِ مُسْهَراً

تسيرُ بِهَمّ سارياً ومُهَجِّرا
إليكَ أبا العاصي نَضَيْتُ مَطيّتي

فإنّكَ أحرى أنْ تُغيثَ وَتَنْصُرا
تَدارَكْ نساءَ العالَمينَ بِنُصْرَةٍ

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدوّ كانت، فأعلم بذلك، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها، وقال للعباس: سلها: هل أغاثكم الحكم؟ فقالت المرأة ، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدوّ ، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعز نصره؛ فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه وقال:

على البُعْدِ أقتادُ الخميسَ المظفّرا
أَلَمْ ترَ يا عبّاسُ أنّيَ أجَبْتُها

ونفّسْتُ مَكْروباً وأغنَيتُ مُعْسِرا
فأدْرَكْتُ أوْطاراً وبرّدتُ غِلّةً

فقال عباس: نعم، جزاك الله خيراً عن المسلمين، وقبّل يده «(61).

وإن يعجب المرؤ فعجب هذا التأثير الذي يلقيه الشعر في روع سامعه، وكأنه يسحره ، فيهب مسرعاً لتمثّل ما سمع، فهذا الحكم بن هشام يجهّز جيشاً فور سماعه قصيدة عباس بن ناصح، ويغزو البلاد، ثم يعود مظفّراً منصوراً، وما ذاك إلا ضرب من براعة التصوير، وروعة التخييل، ولو أن القصيدة كاملة بين أيدينا لتبينّا ذلك، وفي هذا المطلع الموفّق ما يشي بشيء مما ذهبنا إليه، فالشاعر يعبّر عن همّ أرّقه، ومنع النوم عن عينيه، ففاضت نفسه بالمشاعر الجيّاشة، وهتف بصوت عالٍ هزّ أعماق الحكم بن هشام – أبي العاصي -: أن تدارك نساء العالمين بنصرتك! وإن كان هذا المطلع لا يخلو من المباشرة والتقرير.

ومن مواضيع شعر عباس بن ناصح الافتخار بشجاعته، وأنفته، وصبره على تحمّل المشاقّ والمتاعب، وربّما تكون أسفاره ورحلاته إلى الشّرق دليلاً صادقاً على قوله(62):

عَنْ وِرْدِ ماءٍ قريبٍ غيرِ ممنوعِ
وَقَدْ أُحَلّئُ نفسي وهْيَ صاديةٌ

في فتيةٍ كمصابيحِ الدّجى رُوَعِ
وأهْبِطُ الخَبْتَ لمْ تُؤكلْ أجِمّتُهُ

ماضٍ إذا همّ سامٍ غيرِ مدفوعِ
بكلّ أشْعَثَ قدْ رَثّتْ عِمامتُهُ

ولا يظلّ مُطاراً عندَ تَرْويعِ
يتّخذُ السّيفَ عندَ الهَولِ مَفْزَعَهُ

فالصورة هنا بصرية حركية، مفعمة بدلالات الإقدام والاندفاع، دون خوف أو وجل، ونستطيع تتبّع ذلك وفق الأفعال

أو الذبذبات الآتية: (أحلّئَ/أهبط/روع/ماض ٍ/سام ٍ/غير مدفوع/السّيف/مفزعه/مُطاراً/ترويع) .

والملحظ النقديّ الّذي أريد الإشارة إليه، هو أن هذه المقطوعة تضجّ بالألفاظ والتراكيب الجزلة المتينة ، التي قد تكون غريبة بعض الشيء، من مثل: أحلّئَ، والخبْت، وأجمته، ومُطاراً ، ولعلّ هذا مقصود من قبل عباس، إظهاراً للعلم، والبراعة في النظم، ولا غرو فالسياق سياق افتخار وزهو.

ومن مواضيع شعر عباس بن ناصح الوصف، وقد جاء به دون تكلف، وفق ما يمليه عليه الحسّ المرهف، والخيال الهادئ، والتأمل الرّزين، فعندما أعجب بمنظر الغروب، وأنست نفسه إليه ، أراد إشراكنا معه في هذه المتعة، فقال متكئاً على التشبيه التمثيلي(63):

كَعَذْراءَ تبغي في الحِجالِ التّواريا

وَشمسُ النّهارِ قدْ هَوَتْ لمغيبها

ولمّا هبط الليل، وخيّم الظلام ، وصف عباس بن ناصح طول الليل، والسّهر، ومراعاة النجوم،(64):

فلا أرى الليلَ عَنْ مَرْقاتِهِ انْصَدَعا

فَبِتُّ أَرْقُبُ صُبْحاً سُدّ مَطلِعُهُ

تَهْوي على السَّمْتِ منها غُوَّراً خُضُعا

كأنّهُ وَنُجُومُ الليلِ قدْ جَعَلَتْ

أُخرى الرِّعاءِ يُزَجّي سائقاً هُبُعا

راعٍ تَلَبَّثَ قدْ أَوصى بِصِرْمَتِهِ

أَبَرَحْتُماني فإنْ لمْ تَفْعَلا فَدَعا

يا ليلُ أَصْبِحْ ويا صبحُ اسْتَترْ فَلَقَدْ

وهذه المقطوعة تعبّر عن خلجات نفس مكلومة، وتكشف عن صرخات ذات مهمومة، فتقدّم لنا صورة معاناة عاشها الشاعر، لم يملك تجاهها إلا أن ينادي هذا الليل « يا ليل أصبح»، علّه يأذن بإشراق فجر جديد.

ووصف آخر يقدّمه لنا عباس بن ناصح في قطع المفاوز، وصفات الإبل والمسافرين، فيقول(65):

نَوْمَ الفتى ذي المرّةِ النَّدْبِ   وَمَخوفَةٍ تَنْفي مَخَافَتُها

بالليلِ مِثْلُ تَنازُعِ الشَّرْبِ   لِلْجِنّ في أَجْوازها لَغَطٌ

أَشْرَفْنَ كالمَنْهوءَةِ الجُرْبِ   وترى بها جَوْنَ النّعامِ إذا

وحقيق بعباس بن ناصح وصف الصحاري وما فيها من أخطار، وهو الرحّالة، المتنقل بين المغرب والمشرق، طلباً للعلم، ولعلّ هذا تفسير لتقديم الكتّاني له دون سائر الشعراء في أوّل باب وصف المفاوز والمسافرين فيها.

وقد جاءت الصورة هنا مرتّبة، متدرّجة، يأخذ بعضها برقاب بعض، فكان البيت الأول في وصف أثر الصحراء على المسافرين، وأنها تزرع الخوف في نفوسهم، فتنفي النوم عن عيني الفتى الشجاع الندب. وجاء البيت الثاني ليعمّق الحالة الشعورية، عبر التركيز على عنصر الصوت، وقد توهّم الشاعر سماع صوت الجن، وتخيّل لغطهم وضوضاءهم، فرسم لهم صورة القوم يتنازعون أكؤس الشّرب بينهم. وفي البيت الثالث انتقل إلى عنصر اللون، وأشرك حاسّة البصر في تخيّل مشاهد الخوف والفزع، إذ تتغيّر الألوان ، وتتغيّر تبعاً لذلك الأشكال والهيئات، وما تجيشه في النفس من أوهام وتصوّرات.

أمّا وصف السراب فمنه قوله(66):

عَوْمَ السّفائنِ تُزْجيها نَواتِيُها

تَعُومُ أَحداجُهُمْ في الآلِ رافعةً

وقوله(67):

أمَامِيَ وَخَلْفِيَ ، راكبُ لُجّةَ البحْرِ
قَطَعْتُ بها خَرْقاً كأنّي ، وآلُهُ

وهنا تبين العلاقة الوطيدة التي ينسجها خيال الشاعر بين السراب في الصحراء، ونقيضه المباشر ، الماء ولجّته في البحر، ثم يستدعي الإغراق في الوصف، تشبيه مراكب الصحراء (الإبل) بمراكب الماء (السفن) من حيث الحركة والمسير، وأن لكل منها حداةً يسوقونها إلى حيث المقصد المنشود، ولعلّ القدرة على جمع المتناقضات، والتأليف بينها، مردّه إلى الخيال الخصب، والقدرة على تفكيك أجزاء الطبيعة، وإعادة بنائها من جديد، بما يترك أثراً جليّاً في نفوس المتلقّين.

ومن مواضيع شعر عباس بن ناصح الزهد، وأدقّ تعريف له: أن تكون الدنيا بين يديك، لا أن تكون في قلبك.

وقد مرّ بنا أن عباس بن ناصح عالم بعلوم شتى، وفقيه، وقاض ، وهذا يعني أنّ ثقافته الدينية كانت واسعة، والقول في الزهد أمر نابع منها، نحو قوله(68):

كَمُدّةِ الدّهرِ والأيّامُ تُفْنيها

ما خيرُ مُدّةِ عيشِ المَرْءِ لو جُعِلَتْ

وابْتَغِ نجاتَكَ بالدّنيا وما فيها

فارغَبْ بِنَفْسِكَ أنْ تَرْضى بِغَيرِ رضاً

نلاحظ هنا الأسلوب الديني في الوعظ، والدعوة إلى التبصّر في عواقب الأمور، رغبة في إصلاح النفس والمجتمع، فعمر الإنسان قصير، ولا بدّ من التزوّد للآخرة، والزهد في الدنيا وما فيها من متع وملذّات، وعمدة التوفيق في الرضا عن الله، وطلب الرضا منه سبحانه، كما يقول ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه: لا يصل العبد إلى الرّضا إلا بالرّضا!

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الشعراء، والكثرة الكاثرة منهم، في المشرق والمغرب، قديماً وحديثاً، قد دأبوا على التسخّط من الدهر، وعدم الرضا بالقدر، لأنهم يعتقدون أنهم يستحقون أكثر مما حصلوا عليه في حياتهم، أما عباس بن ناصح فقد حاز قصب السّبق في تناوله فلسفة الرضا، في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الشعر العربي.

ومن أمثلة شعره في الزهد ما حكاه جابر بن غيث النحويّ(69)، قال: « وفد أبو العلاء عباس بن ناصح الجزيري على الأمير الحكم بقرطبة في بعض أيام وفادته إليه، والأدباء يقرؤون عليه كتب اللغة ، ويستكتبون أشعاره، فمرت عليهم قصيدته الميمية، التي أولها:

إذا المَرْءُ لمْ يَعْدَمْ تُقى الله والكَرَمْ

لَعَمْرُكَ ما البلوى بِعارٍ ولا العَدَمْ

حتى انتهى القارئ إلى قوله:

ولا (حازمٍ) إلّا الّذي خُطَّ بالقَلَمْ

تَجافَ عن الدّنيا فَما لِمُعَجِّزٍ

فقال يحيى بن حكم الغزال – وكان في الحلقة، وهو إذ ذاك حدث نظّار، متأدّب ذكيّ القريحة – أيها الشيخ، وما يفعل مفعّل مع فاعل؟ فقال له: وكيف كنت تقول أنت يا بنيّ؟ قال: كنت أقول:

ولا (حازمٍ) إلّا الّذي خُطَّ بالقَلَمْ

تَجافَ عن الدّنيا فليس لعاجزٍ

فقال عباس: والله يا بني لقد طلبها عمّك ليالي فما وجدها»(70).

أهم الاستنتاجات التي تفيدنا بها هذه الحكاية، أن عباس بن ناصح كان يجلس لتعليم اللغة، وإملاء أشعاره، وأن مجلسه كان يحضره الكبار والصغار، وأنه كان يتسمّح في المجلس،

ويأذن بالمناقشة والاعتراض، فقد أذن ليحيى بن حكم الغزال – وهو حدث صغير، ناشئ في طلب الأدب – أن يخالفه ويعترض عليه، ثم نجده يعترف بالعجز عن التوصل عن التركيب اللغوي الذي يتمم به البيت الشعري ، ويقرّ لصبيّ بإدراك ما فاته هو، ثم يأخذ برأيه، وكل ذلك من صفات العلماء الفقهاء الزاهدين، وعباس بن ناصح أحدهم، بل في الذروة منهم.

والشاعر في هذين البيتين إنما يستدعي معاني القرآن الكريم، وألفاظ الحديث الشريف، فجاء في البيت الأول ليؤكد أن كون الإنسان معدماً فقيراً لا يجلب عليه العار، مادام غير معدم من تقوى الله والكرم، وهذا المعنى مستمدّ من قوله تعالى: « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»(71). والبيت الثاني دعوة إلى الزهد في الدنيا والقناعة في طلب الرّزق، فكل شيء مقدّر بقدر الله، وهذا المعنى مستمدّ من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد»(72).

وآخر موضوعات شعر عباس بن ناصح – وفق ما اجتمع لديّ – الغزل، وليس أيّ غزل، إنه الغزل بالمذكّر! وقد جاء غزلاً حسّيّاً يصف سحر العيون ، وجمال الخدود المورّدة، ودقة الخصر ورشاقته، وكلها أوصاف مبتذلة، تأتي على الخاطر بخفّة وسهولة، ثم تغادره ولم يعلق به شيء منها، إنها لا تترك في نفس المتلقي أثراً لصدق الهوى، ولواعج الشوق، يقول عباس ابن ناصح(73):

لا تُمِتْ قَلْبَهُ بِلَوعَةِ صَدِّكْ

قُلْ لِعَبْدِ الرَّحيمِ رِفْقاً بِعَبْدِكْ

نَيْكَ والوَرْدِ مِن شقائقِ خَدّكْ

بِذِمامِ الهوى وبالسِّحرِ مِنْ عَيْـ

كَ ولا تَقْسُ مِثلَ قَسْوَةِ نَهْدِكْ

رِقّ لي رِقّةً تُشاكِلُ خَصْرَيـ

وربما يكون هذا الغزل من قبيل التندّر والفكاهة، وليس محمولاً على صدق المشاعر والأحاسيس، ولا مأخوذاً مأخذ الجدّ، وليس في أيدينا شيء يشير إلى حياة اللهو والمجون في حياة عباس بن ناصح، بل الأخبار عنه عكس ذلك تماماً، وقد أفضنا في الحديث عن علومه ومناقبه .

وهكذا وجدنا أن الموضوعات التي عالجها عباس بن ناصح في شعره ، تتوزع على الفخر، والمدح ، والاستغاثة والاستنجاد، والوصف، والزهد، والغزل، والشاعر في هذا كله يعبر عن انفعالاته ومشاعره، ويصور حالاته النفسية، في قالب من الفن الرفيع ، والتصوير الجميل.

خاتمة :

يرى الدكتور صلاح جرّار أن الشعر العربي في الأندلس في عصر الفتوحات والولاة كان محافظاً ، يحمل ملامح الشعر المشرقيّ، أما في عصر الإمارة، فقد ظهر فيه تياران أحدهما محافظ يحاكي الشعر العربي في المشرق، والثاني تجديدي يحاول استلهام البيئة الأندلسية في موضوعاته وأساليبه. فكان عباس بن ناصح في شعره على «مذهب العرب الأول في أشعارهم، فيصرف الغريب، ويهوى المتانة «(74)، وكان عباس بن فرناس ويحيى بن حكم الغزال من الشعراء المجدّدين الذين يميلون إلى الرقة، وسلاسة اللفظ ، واستلهام الطبيعة الأندلسية(75).

ونحن نجد اعترافاً صريحاً من المشارقة، بتفوق الأندلسيين في بعض شعرهم، على النحو الذي ذكرناه من قصة ارتحال عباس بن ناصح إلى أبي نواس، ثم إنشاده شعراً لأبي المَخْشيّ في العمى، فقال أبو نواس بعد سماعه ذلك الشعر: «هذا الذي طلبته الشعراء فأضلته»(76)، وفي بعض الروايات أن أبا نواس شهد لعباس بن ناصح بالتفوق عليه ، وهو من هو في المنزلة بين شعراء المشرق والمغرب(77).

وللدكتور إحسان عباس رأي مفاده أن تقليد الأندلسيين للمشارقة أمر طبيعيّ، بل يكاد يكون حتميّاً لعدّة أسباب، أهمها:

- أنّ الأندلس مهما تُحرز استقلالاً عن المشرق في سياستها ونظمها فإنها بنت المشرق، ولم تنقطع صلتها الثقافية به في يوم من الأيام ، وقد ظلّت الرحلة العلمية إلى المشرق هي منبع العلم والعرفان، فكيف إذا أضفت إلى ذلك تلك الرابطة الدينية القوية التي تجعل وفود الأندلسيين تستهين بكل المصاعب البرية والبحرية في سبيل أداء فريضة الحجّ؟!

- أنّ الأندلس كانت بحاجة إلى المشرق ؛ لأنه أرقى حضارة وأحفل بأسباب التقدم العمراني .

- أنّنا إذا نظرنا إلى الموروث الأدبي وجدنا موروث الأندلسيين الأدبي – وهم عرب ذوو ثقافة عربية – إنما هو شعر العرب وأدبهم منذ الجاهلية حتى أيام أبي تمام، وليس من الطبيعي أن يَجُذ" الأندلسيون أسباب ذلك الموروث، لأنهم يحملون للشرق كل تقدير وإكبار، زد على ذلك أنه من العسير على الإنسان أن يطرح جانباً المؤثرات التي تلقاها في الصغر ، ووجهت نظرته وطريقته في التعبير.

- أنّ الوسيلة التعبيرية عند الأندلسيين والمشارقة واحدة بكل ما فيها من مظاهر القدرة أو العجز، والاتحاد في وسيلة التعبير يوحّد أو يقرّب صور الشكل، كما أن الاتحاد في موادّ الحضارة يوحّد الموضوع الشعريّ (78) .

وكل هذه العوامل نجدها ماثلة في حياة عباس بن ناصح، مما يسوّغ له اتّباع سَنَن العرب في شعرهم، مع أننا كنا نأمل في أن يطلق لأدبه العنان، ولو فعل لأبدع أيما إبداع .

ومهما يكن من أمر، فإن عباس بن ناصح في حياته وشعره، يقدّم مثالاً رائعاً للفقهاء الشعراء في الأندلس؛ فقد قضى حياته في العلم والتعليم، والرحلة بين المشرق والمغرب ، وترك لنا شعراً ننعم بظلاله، ونتنسّم منه الطّيب، كلما هبّت الريح على غصن الأندلس الرطيب.

الهوامش والتعليقات:

1- انظر ترجمته في : الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، وضع حواشيه : سالم البدري ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1999م ، ص 216-217 . الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، دار المعارف ، مصر ، ص 262- 263. ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، بعناية : السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1988م ، ج1، ص 340- 341. ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، ت : د. محمود علي مكي، د. ت ، ج2 ، ص 234-237. القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1952م ، ج2، ص 365-367. ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، ت : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1953م ، ج1 ، ص324-325. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ت : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج16 ، ص368-369. الفيروز أبادي ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ت : بركات يوسف هبود ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، ط1، 2001م ، ص96. السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط1 ، 1965م ، ج2 ، ص28. الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ت : د. إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت – القاهرة ، ط2 ، 1981م ، ص294-295. د. عفيف عبد الرحمن ، معجم الشعراء الأندلسيين والمغاربة ، معجم ببليوغرافي بالشعراء ومصادر دراستهم ومراجعها ، إصدارات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 2003م ، ص199-200. عبد الحكيم الوائلي ، موسوعة شعراء الأندلس ، دار أسامة ، عمان ، ط1 ، 2001م ، ص03-04.

2- تفرد السيوطي بتكنيته بأبي المعلى ، أما باقي المصادر فنصت على أنه أبو العلاء . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج2 ، ص28.

3-الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216.

4- ذكر د. محمود علي مكي أن أوربة قبيلة بربرية من البرانس ، انظر : المقتبس لابن حيان القرطبي ، ت : د. محمود علي مكي ، ج2 ، ص515.

5- إبراهيم بن قطن المهري الجزيري ، نحويّ قيروانيّ ، وهو أخو أبي الوليد

عبد الملك شيخ أهل اللغة والرواية ، وكان إبراهيم يرى رأي الإباضية ، وربما كان هذا من أسباب التهاجي بينه وبين عباس . انظر ترجمته في الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص229. ويذكر د. محمود علي مكي أن الغريب في النص هو النسبة التي ألحقت باسم إبراهيم المذكور ، وهي الجزيري ، إذ إنه لم يكن من أهل الجزيرة الخضراء ، فلعله سكن هذه المدينة الأندلسية مدة . ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص515.

6- ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص234. ولم أجد شيئا من شعر عباس في هجاء إبراهيم هذا .

7- نفسه ، ج2 ، ص235.

8- انظر : الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216. ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، ج1 ، ص341. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج16، ص368.

9- ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص237. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج16، ص368. السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج2 ، ص28. ولم يحدّد أي مصدر سنة معيّنة لوفاته .

10- ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص 236 . الأعصم : الظبي الذي يسكن الجبال . المتوقّل : المصعد في الجبل . وهو يعني الموت الذي يصيب كلّ حيّ مهما حاول التوقّي منه .

11- ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص231.

12- الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216.

13- د. صلاح جرار ، قراءات في الشعر الأندلسي ، دار المسيرة ، عمان ، ط1 ، 2007م ، ص17.

14- نفسه .

15- انظر : في هذا البحث ، ص1.

16- عجزه : « وَهَانَ عليَّ مأثورُ القبيحِ » . أبو نواس ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ، 1985م ، ص 257.

17- عجزه : « وقامَ وجهُ الزّمانِ واعتدلا » . أبو نواس ، الديوان ، ص313.

18- ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1989م ، ص57. ومن الملاحظ أن البيت السابق غير صحيح وغير مفهوم .

19- الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص262-263. ابن هَرْمة : هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، وممن أدرك الدولتين . أبو الأجرب: جعونة بن الصمة ، كان مدّاحا للصميل وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ولم يلحق دولة بني أمية .

20- الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216.

21- ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص278. انظر في مواضيع هذه الكتب وأهميتها العلمية تعليقات د. محمود علي مكي ، المصدر نفسه ، ص 525-527.

22- د. صلاح جرار ، قراءات في الشعر الأندلسي ، ص20.

23-الصواب : بلغتُ .

24-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص146. ومؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1989م ، ص 121.

25-)ابن الأبّار ، الحلة السّيراء ، ت : د. حسين مؤنس ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1985م ، ج1 ، ص48.

26- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، 1997م ، مادة (جثو) ، ج2، ص265.

27- سورة الجاثية ، الآية 28.

28-سورة آل عمران ، الآية 66.

29-الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216.

30-ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، ج1 ، ص324.

31-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص234.

32-الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص263.

33- الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص295. نقلا عن (المقتبس «أنطونية » : ص36) .

34-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص236. المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968م ، ج2 ، ص262.

35- الصفدي ، الوافي الوفيات ، ج16، ص386.

36-الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ،ص110.

37-الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ،ص236.

38-نفسه ،ص256.

39-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص92.

40-الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص217. وقد اورد ابن حيان البيت الثاني فقط ، المقتبس ، ج2 ، ص233. وكذلك فعل ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص68.

41-المقري ، نفح الطيب ، ج1 ، ص343. لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ت : محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، مصر ، 1955م ، ص489-490.

42- ابن حيان ، المقتبس ، ج2، ص37.

43- الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص80.

44- نفسه ، ص152.

45- نفسه ، ص167. رجح د. إحسان عباس أن تكون الكلمة الأولى في هذه الأبيات « مخوفة » بدل « مجوبة » وهذا ما أثبته واعتمدته .

46- الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص 169.

47-نفسه .

48-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص237. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج16 ، ص369. السيوطي ، بغية الوعاة ، ج2 ، ص28.

49-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص235. ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب، ج1 ، ص324. الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج16، ص368. المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج2 ، ص261 ، ورواية المقري أحلت (ولا عاجز) محل (ولا حازم) والصواب ما أثبته .

50-الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص 138.

51-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، 236. المقري ، نفح الطيب ، ج2 ، 262.

52-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، 236.

53-الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص110.

54-الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص236.

55-ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (فأد) ، ج5 ، ص83.

56-هو جودي بن عثمان ، مولى لآل طلحة العنبسيين من أهل مرو ، رحل إلى المشرق ، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما ، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي ، وله تأليف في النحو ، سكن قرطبة بعد قدومه من المشرق . الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص256.

57-نفسه ، 256-257.

58-نات الرجل نوتاً : تمايل ، والنوتي : الملاح الذي يدبر السفينة في البحر . ابن منظور، لسان العرب ، مادة (نوت) ، ج6 ، ص320.

59-ابن حيان ، المقتبس ، ج2، ص92.

60-وردت القصة في المصادر الآتية : الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص217. ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص67-68. ابن حيان ، المقتبس ، ج2، ص232-233.

61-المقري ، نفح الطيب ، ج1 ، ص343-344.

62-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص237. أحلّئ : أمنع نفسي من الشرب . الخبت : المطمئن المنخفض من الأرض . الأجمة : جمع جميم وهو النبت الذي يغطي الأرض . روع: جمع أروع وهو الشجاع الذكيّ الفؤاد .

63-الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الندلس ، ص80. الحجال : واحدها حجلة، وحجلة العروس بيت يزين بالثياب والأسرة والستور . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (حجل) ، ج2 ، ص32.

64-نفسه ، ص152. الصرمة : القطعة من الغنم . الهبع : ما نتج في آخر النتاج . أبرحتماني : أفرطتما وبالغتما .

65-نفسه ، ص167. الجون : الأبيض أو الأسود ، فهو من الأضداد . المنهوءة : الجمال المطلية بالهناء وهو القطران .

66- نفسه ، ص169 . الأحداج : ما حدّه حدج ، وهو نحو الهودج . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (حدج) ، ج2 ، ص39.

67-نفسه .

68-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص237. الصفدي ، الوافي الوفيات ، ج16 ، ص369. السيوطي ، بغية الوعاة ، ج2 ، ص28 .

69-هو جابر بن غيث اللبلي ، من العلماء بالعربية والشعر ، استجلبه الوزير هاشم بن عبد العزيز من بلدة لبلة ، لتأديب أبنائه . الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص266.

70-ابن حيان ، المقتبس ، ج2 ، ص235-236.

71-سورة الحجرات ، الآية 13.

72-الترمذي ، السنن ، ت : الشيخ ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي ، الرياض، ط1، 1988م ، ج4 ، ص458.

73-الكتاني ، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص138.

74-ابن حيان ، المقتبس ، ص234.

75-د. صلاح جرار ، قراءات في الشعر الأندلسي ، ص20-21.

76-الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص263.

77-الخشني القيرواني ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص216.

78- انظر : د. إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1973م، ص127-128.